

# الفكر الفلسفي والفكر العلمي.. تكامل أم تنافر؟

## الدين والفلسفة والعلم لا يمكن لأحدها أن يعوض الآخر



ليس الفلاسفة وحدهم من يمكنهم تفسير العالم (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

وأما الثالثة فكانت ردة فعل دفاعية أخذت طابع المناهضة النضالية للعلم، حيث تم الفصل بين ما كان متكاملًا، والوقوف ضد كل ما يشغل العلم، فجعل الشعور في مواجهة العقل، والوجود ضد المعرفة، والجمال ضد الحقيقة، والطبيعة ضد التقنية، والفلسفة ضد العلم.

ولما فرض النموذج العلمي الصارم نفسه على الأنهاس وفي المؤسسات الجامعية في نهاية القرن التاسع عشر، كان رد فعل الفلسفة الأخير ابتداءً "العلوم الفلسفية" لمزاحة العلوم الوضعية وحتى السيطرة عليها، فظهرت السيولوجيا الفلسفية والأنثروبولوجيا الفلسفية والمنطق الفلسفي والفلسفة التحليلية والتاريخ الفلسفي للفلسفة ونظرية المعرفة الفلسفية... وهي الممارس التي تهيمن اليوم على المشهد الفلسفي.

بعض هذه العلوم سمح بإثراء فهم الإنسان، وكان له أثر حقيقي في الحقل الفكري، ولكن أيضًا ما تكن محاولات الفلسفة للحفاظ على البعد المعرفي، فإنها لا يمكن أن تناقض العلم، أو تقوم مقامه، بل إن العلوم الفلسفية نفسها ما انفكت تتأثر بتطور العلوم الصحيحة، دون أن يحصل العكس. جعل الفلسفة تقنع بالمحافظة على البعد القيمي للأخلاق ومعنى الحياة والحكمة والسعادة، وهي مجالات يعجز العلم عن النفاذ إلى جوهرها مهما توسل بالوسائل الحديثة ومبتكراته المتطورة، ما يعني أنه لا يمكن أن يحتوي الفلسفة.

**الفلسفة لم تناقض الدين بل كرست وظيفته الفكرية والأخلاقية في عالم جديد أكثر تمدنًا وتقانة ومعرفة**

أما الفلسفة، فبعد أن كانت هي العلم، ثم هيمنت عليه وقلدته وعادته، صارت تستفيد منه، دون أن تتخلى عن طموحها الفكري.

وجملة القول إن المسألة ليس تعويضًا للدين بالفلسفة، ثم تعويضًا للفلسفة بالعلم، وإنما هي مسيرة أضحت إلى ضرورة تعايش ينصرف فيه كل طرف إلى مجاله الخاص دون أن يتعدى على مجال الآخر.

موسوما بفكر ديني تمت مساعلته والتفكير فيه وعقلنته. ولذلك نجد في الفلسفة الوظيفيتين الأساسيتين للفكر الديني، ونعني بهما تفسير العالم ومنح الإنسان قواعد سلوك، فالفلسفة تربط رؤية العالم بالحكمة، والقيم الإبراهيمية بالقيم الأخلاقية أو الوجودية. وإذا كانت الفلسفة قد ساندت الفكر الديني في البداية عن طريق إصلاحه، فإنها تطورت في ما بعد نحو استقلالية متنامية، إلى أن انتهت في الغالب إلى مواجهته.

ولكن أيًا ما تكن درجة استقلاليته الذاتية، فإنها حافظت على وظيفتها المضاعفة في تفسير العالم ومنح الإنسان شروط الإقامة فيه بطريقة أفضل، فهي بالأساس فكر العالم وفكر علاقة الإنسان بالعالم، والمفكر لا يمكن أن يغض النظر عن وضعه الوجودي، حتى وهو يتوق إلى نوع من الموضوعية المعرفية.

### النموذج العلمي

لقد تنازل الدين للفلسفة عن جانب من وظيفته الإدراكية عندما اتضح أن من الضروري أن تكون المعرفة عقلانية لكي تكون محل ثقة. وفي الوقت نفسه، انطوى الفكر الديني على ما يخصه، أي العقيدة والإيمان والرسالة. فكان أن تخصصت الفلسفة في ممارسة الفكر النقدي والتفكير العقلاني، وتركت للدين مذهبهم وطقوسهم، فما لبث نفوذها واستقلالها في مجال المعرفة أن ازدادًا نموًا واطرادًا، بوصفها علما أي مادة معرفة، ولكن شيئًا فشيئا بدأ أن للعلم مناهج استقصاء مخصصة تقطع مع الأسئلة الميتافيزيقية، فلما صار العلم تجريبيًا بدأ اختلافه مع التساؤلات التأميلية واضحا، ودخل منعرجا رأت فيه الفلسفة تنكرا لها كحاضنة أولى، وكما عارضت الفلسفة الدين، أعلن العلم معارضته للفلسفة.

وكانت ردة فعل الفلسفة على كفيات ثلاث. الأولى كانت تعبيرًا عن انتباهها بظهور علم مستقل، نظرًا إلى أن العلم التجريبي بدأ اختلافه والثانية كانت موقفًا وسطًا حيث تخلى للفلاسفة عن المعرفة الوضعية للعلم، واكتفوا بفضل التأسيس، فالفلسفة في رأيهم تظل هي المؤسسة للمعارف، وتاملاتها تشمل كل مجالات الحياة، بعكس العلم الذي يتجه إلى التخصص.

عندما يتحدث أحدهم عن ماهية الفلسفة، ويثير أسئلة حولها في ظل تناسل العلوم الإنسانية التي باتت تزاحمها، يسارع المشتغلون بالفلسفة إلى الرد بأن أهل الصناعة أدركوا بها وبماهيتها وغاياتها، وأن كل من ليس منهم لا يمكنه الإحاطة بمبناها ومعناها ومنطلقاتها وغاياتها. بيد أن هذا الموقف ليس خاصًا بالمشتغلين بالفلسفة وحدهم، بل هو تقريبا قدر مشاع بين سائر المعارف، حتى العلوم الصحيحة.

غاية سوى أن يعرف. وفي رأي فيليب فوتان، الأستاذ بدار المعلمين العليا بباريس، أننا إذا أردنا معرفة ماهية المحقق والسياسة والفن والفلسفة، فمن المستحسن أن نطلب من العلم أن يتولى ذلك، بدل تجميع آراء رجال الدين والسياسة والفنانين والفلاسفة، وتلك أفضل وسيلة للتمييز بين ما كان وما ينبغي أن يكون.

وليس استقصا من الفلسفة أن تقم من خارجها، لأن ذلك ما هو سوى تمثيل لجوهرها القائم أساسا على البحث عن الحقيقة، وتأكيد لما تدعو إليه هي نفسها من إنقاذ للحس النقدي، ولا يمكن أن تتخلص من نقد ذاتها وهي الحريصة عليه.

وليس مأخذًا أن تثبت المساعي الفكرية في بحثها عن الحقائق الكونية أن الفكر الديني كان أسبق من الفلسفة، فعندما أراد البشر معرفة مبادئ الطبيعة وقوانين العالم وموقع الإنسان في هذا العالم، بدؤوا بالفكر الديني كمنهج، لا كدين يحتوي على شعائر وطقوس مرتبطة بالإيمان والعقيدة والرسالة والكتب السماوية، حيث لكل فكر ديني رؤية عن العالم من جهة وقيم أخلاقية من جهة ثانية، أي أنه معياري وتفسيري في الوقت ذاته.

وكان لتطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والعقليات في بعض المجتمعات ما جعل التفسيات الدينية غير كافية، ففي العصور القديمة، يونانية وهندية وصينية ورومانية وعربية إسلامية وأخرى أوروبية، بدأ أن من الضروري عقلنة الرؤية الدينية للعلم، ليس لوضع حد للدين، وإنما لإنقاذه. أي أن الفكر يجب عليه أن يُجد عقيدة لم تعد تنهض بنفسها وحدها داخل مجتمع معقلن، تواقع إلى الفردانية، ومعقلن بسبب تقسيم العمل وخلق تخصصات داخله.

هنا ظهرت الفلسفة، لا كتقيضة للدين بل كطريقة لتكريس وظيفته الفكرية والأخلاقية في عالم جديد، وهو عالم أكثر تمدنًا وتقانة ومعرفة، وكان ظهورها في الشرق كما في الغرب

أبو بكر العيادي  
كاتب تونسي

يرفض رجال الدين أن يحدد علماء الاجتماع أو المؤرخون طبيعة عقيدتهم بدلا عنهم. ومثلهم الفلاسفة حين يسألون عن طبيعة تاملهم، وقس على ذلك رجال السياسة والقانون والفنون، فكل فئة ترى أنها الأقدر على تعريف اختصاصها.

ولكن لما كانت تلك الأنشطة نظرية ومعيارية في الوقت ذاته، إن ثمة قيم دينية وأخلاقية وسياسية وجمالية، فإن تعميم تلك الأسئلة يخلق تعددا في المفاهيم والآراء والانتزاعات. فعندما تلحق الغاية المعيارية بالمنطوق الوصفي، يأخذ التامل صبغة شخصية، ذلك أن ثمة ميلا كبيرا إلى تحديد مفهوم هذا التخصص أو ذلك انطلاقا من الاستخدام الذي يمارسه صاحب التخصص نفسه.

### في الفلسفة وخارجها

إن جوهر الفكر والممارسة سواء في الحقل السياسي أو الفني أو القانوني غالبا ما يصاغ بطريقة تختلف باختلاف القناعات السياسية والفنية والتشريعية التي تنهض لتعريفها وتحديد مفهومها. كذلك الفيلسوف، فهو عادة ما يضع فلسفته الشخصية كمعيار يحدد مفهومه للفلسفة. وبدل أن يفكر في ماهية الفلسفة، يبحث عما ينبغي عليها أن تكون، أو ما كان ينبغي عليها سابقا أن تكون. والنتيجة أن ثمة من التعريفات للدين بحجم الديانات، وتعريفات للفن بقدر ما يوجد من تيارات فنية، ومفاهيم عن الفلسفة تضاهي عدد المدارس الفلسفية، ما يؤدي بالمقاربة المنهجية إلى التشتت والالتباس.

ولكن لا توجد تعريفات للعلم بعدد برامج البحث العلمي، والسبب أن العلم، بخلاف الحقول المعرفية المعيارية، يخضع غايته لدراسة الأشياء والظواهر والقوانين، فليس له من

## عين دبي على المبدعين في الأدب والفنون

دبي - يحتل الكتاب الإماراتيون مركز الصدارة في مهرجان طيران الإمارات للأدب ضمن محور "إضاءات على المواهب الإماراتية" المقدم برعاية من هيئة الثقافة والفنون في دبي والذي سينطلق في 4 فبراير المقبل في فندق انتركونتيننتال دبي فيستيفال سيتي، حيث يتضمن المحور جلسات حول النشر والترجمة والتصوير السينمائي وغيرها من الموضوعات ذات العلاقة، وستقام جميع الجلسات باللغة العربية. ومن أبرز الفعاليات محاضرة حول قوانين الهجرة والإقامة الثقافية في دولة الإمارات، تقديمها هالة بدري، مدير عام هيئة الثقافة والفنون في دبي (دبي للثقافة)، والتي تعمل من خلال منصبها على تطوير منظومة إبداعية متكاملة في مدينة دبي توفر فضاءً مبتكراً لإزدهار جميع مكونات المجتمع الإبداعي، ومحمد أحمد المري، مدير عام الإدارة العامة للإقامة وشؤون الأجانب بدبي.

وسيسلط المحاضران الضوء على الكيفية التي تخطط بها دولة الإمارات لبناء مجتمع مستدام من خلال جذب الأشخاص الموهوبين، ولماذا تعد المواهب الخلافة ضرورية لاستراتيجية الدولة الهادفة إلى بناء مستقبل مزدهر للأجيال القادمة.

وتشارك نورة الكعبي، وزيرة الثقافة وتنمية المعرفة الإماراتية، في جلسة نقاشية حول مستقبل اللغة العربية، كما تتشارك في جلسة أخرى بعنوان "المرجعون إلى العالمية"، والتي تضم الشاعر والمترجم أحمد العلي، مترجم "حكاية الجارية" لمارغريت أتوود، و"اختراع العزلة" لبول أوستر، و"حليب أسود" لإليف شافاك، وتدور حول تقييم حركة الترجمة كجزء مهم ضمن الصناعة العالمية للكتب، بالإضافة إلى تسليط الضوء على المعايير المطلوبة لنقل الأعمال المميزة من خلال ترجمتها إلى لغة جديدة.

ويتناول محور "إضاءات على المواهب الإماراتية" الصالونات الأدبية كحدث اجتماعي، وما تسهم به هذه الصالونات على صعيد ثقافتنا ومجتمعنا، ويستضيف المحور المؤلف محمد المرزوقي الذي أسس العديد من نوادي القراءة مثل "صالون الأدب الروسي"، و"نادي أصدقاء نوبل". وسيناقش مع أسماء صديق، مؤسسة "الملقن"، الصالون الأدبي الحائز على عدة جوائز، تاريخ الصالونات الأدبية، وكيف تطورت لتلائم العصر، وستحدثان عن تجربة المشاركة في المحادثات الأدبية ومدى إسهامها في توفير منصة للآراء الأخرى من الأدب العالمي.

ويعد حبيب الملا، من بين أشهر الشخصيات القانونية في دولة الإمارات، حيث سيقدم لمحة عن المواقف المختلفة تجاه عالم الطهو من خلال كتابه "رحلتني إلى عالم المطاعم"، وعن نظريته للأطعمة وفنون الطهو التي غدت تمثيلاً للمجتمعات المختلفة ومظهرًا للثقافة والهوية والتاريخ.

ويحظى الشعر دائما بشعبية كبيرة في المهرجان، وهذا العام ليس استثناء، حيث يجتمع شعراء من الإمارات وخارجها ليقدّموا عروض إلقاء الشعر التي تستضيف الشعراء أمل السهلاوي، وشما البستاني، وزينة هاشم بيد.

ويقدم الكاتب والشاعر الإماراتي، سلطان العميمي، جلسة حوارية بعنوان "الوجه الإنساني للآداب" حيث سيناقش مسألة أن الأدب أداة فريدة من نوعها تعلمنا التخلي عن آرائنا والتعاطف مع الآخر، كما تحفز مشاعرنا لتجربنا على التفكير في رؤية الأشياء من وجهات نظر مختلفة ووضع أنفسنا في مكان الآخرين.

وعن فن القصة القصيرة يتحدث اثنان من رواد المجال، غفران محمود وطالب الرفاعي اللذان سيناقشان تجاهل القصص القصيرة لصالح الروايات ومدى حضور القصة القصيرة في المشهد الثقافي الخليجي.

ويأخذ الدكتور نافع الياسي الجمهور في رحلة بين أروقة المستشفيات ساردا الكثير من القصص التي لا تُنسى بين الطبيب والمرضى، منها المحزن ومنها المضحك، مستوحيا إياها من واقع خبرته ومعانيسته المرضي، ليوضح كيف يمكن للأدب أن يكون أداة فعالة في فهم العالم من وجهات نظر جديدة.

ويستضيف المهرجان، بالإضافة إلى اليوم المخصص للمواهب الإماراتية، نخبة من الأدباء والمبدعين والشخصيات المؤثرة، أبرزهم ملالا يوسفزاي، الحائزة على جائزة نوبل، وعدد من الكتاب مثل إليف شافاك، وأمين معلوف، وليمن سياسي في مزيج من الجلسات والفعاليات الحية والجلسات الافتراضية ليغطي خلال نهاية الأسبوع على مدار أسابيع ثلاثة في كل من مركز جميل للفنون، في الفترة من 29 إلى 30 يناير الجاري، وفعاليات المهرجان الكبرى في انتركونتيننتال دبي فيستيفال سيتي، من 4 إلى 6 فبراير المقبل، وفي السراكال أفنيو، في الفترة من 12 إلى 13 فبراير.

وسيتبع بث 10 جلسات، على الأقل، مباشرة من فعاليات المهرجان الكبرى في انتركونتيننتال دبي فيستيفال سيتي.



كما يعقد المرزوقي ورشة تفاعلية لفن كتابة ومراجعة الكتب المثالية. وسيقوم بشرح التقنيات التي تجعل مراجعات الكتب مؤثرة ولا تُنسى.

وسيقدم الناشران فاطمة البريكي وطلال سالم الصابري تقييمًا للوضع الحالي لجبال النشر في المنطقة خلال جلسة بعنوان "أزمة النشر"، بالإضافة إلى تسليط الضوء على تأثير أزمة انتشار كوفيد - 19 على جميع الصناعات ولإسليم مجال النشر.

وسيتيم الكشف عن سيكولوجية تصميم الكتاب في مناقشة بين الفنانة والرسامة ثمار حلواني والناشر طلال سالم الصابري ضمن جلسة بعنوان "الكتاب يقرأ من غلافه". إذ أن للناشطات الأولى أهميتها، لذلك يوضح